الرواية بصفتها سيمياءً اجتماعيا: دراسة سيميائية اجتماعية في "زمن الأخطاء" لـ "محمد شكري"

The Novel as a Social Semiotic: A Social Semiotic Study in "Time of Mistakes" by "Mohamed CHOUKRI"

د. ابراهيم مهديوي: كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

د. محمد هموش: كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

Dr. Brahim MEHDIOUI: Faculty of Languages, Literature and Arts, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco, Email: mehdiouibrahim@gmail.com

Dr. Mhammed HAMOUCHE: Faculty of Languages, Literature and Arts, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco, Email: Mhammed.hamouche@uit.ac.ma

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v3i3.114

الملخص:

تركز هذه الدراسة على تحليل الأبعاد الاجتماعية للمعنى في رواية "زمن الأخطاء" لـ "محمد شكري" في ضوء السيميائيات الاجتماعية. وهي دراسة تروم تأويل خطاب هذه السيرة الذاتية من أجل كشف ما يقوله الكاتب من خلال سياق اللغة، وما يعبِّر عنه من معانٍ ضمنية لا يمكن فصلها عن سياق المجتمع الذي تُصوِّرُه الرواية، وَدُوِّنَت فيه. وقد خلصت الدراسة إلى تأكيد أن الرواية نسق سيميائي اجتماعي استعان به "محمد شكري" ليُمرِّر رسائل خفية، ويُعبِّر عن رفضه لظواهر مجتمعه، ويحتجّ بكيفية إبداعية على أخطاء فرد ومجتمع. ومن ثم، فإن "سيرة الأنا"– عنده– اعترافٌ، وتقييم، ونقد، وتأمل، ومواجهة، واحتجاج.

الكلمات المفتاحية: سيميائيات اجتماعية، نسق اجتماعي، تأويل، "زمن الأخطاء"، "محمد شكري".

Abstract:

This study focuses on analyzing the social dimensions of meaning in the novel "Time of Mistakes" by "Mohamed CHOUKRI" in the light of social semiotics. It is a study that aims to interpret the discourse of this autobiography in order to reveal what the writer says through the context of the language, and the implicit meanings he expresses that cannot be separated from the context of the society that the novel portrays and was written in. The study concluded that the novel is a social semiotic system used by "Mohamed CHOUKRI" to pass hidden messages, express his rejection of the phenomena of his society, and argue creatively against the mistakes of an individual and society. Hence, the "biography of the ego"– according to him– is recognition, evaluation, criticism, meditation, confrontation, and protest.

Keywords: Social semiotics, Social System, interpretation, "Time of Mistakes", "Mohamed CHOUKRI".

المقدمة:

تُعَدّ السيميائيات الاجتماعية فرعا من فروع السيميائيات يختص بتأويل العلامات داخل سياقها الاجتماعي. ويفترض هذا الاتجاه السيميائي الاجتماعي أن المجتمع بناءٌ سيميائي يتشكل من اللغة، والطقوس، واللباس، والوشم، والعمارة، والرواية، وما إلى ذلك؛ فكل شيء داخله علامة حتى الإنسان مُنتِجها ومُستهلِكها. وهي أشكال ثقافية تواصلية– لفظية، وغير لفظية– يستعملها أعضاء المجتمع من أجل التواصل والتعايش والاندماج، وتُسهِم في تنظيم داخل الفضاء الاجتماعي، وضمان تماسكه، وانسجامه، ووحدته. لكن المتأصِّل فيها كافة أنها أنساق علامات اجتماعية لا تحيد عن دائرة المعنى، أو سيرورة السميوزيس؛ والسبب أن الإشهار– على سبيل المثال– إنتاج ثقافي يمتلك نسقا مُعلَنًا وآخر مُضمَرًا، إذ يوفر هذا النسق السيميائي في مستواه التقريري الصريح خدمات نفعية ومباشرة تتجلى في التسويق والإعلان والترويج للبضاعة، لكن يُظهر مستواه الإيحائي أن النسق الإشهاري "تجارة للعلامات" والقيم، وهي أنساق خفية تَفرض أشياء تتجاوز تعيينه المباشر؛ فقد يفرض ذوقًا معينا، ويُروِّج قِيَمًا ما، ويُعبِّر عن تصنيفات وأحكام اجتماعية وانتماءات مخصوصة، وهكذا دواليك. فما يهمّ محلِّل الخطاب هو الانتقال من المعطى الجاهز إلى الدلالات المستترة من تحت عباءة البدَهي والمألوف والنفعي.

من هذا المنطلق، تقترح هذه الدراسة الاستناد إلى التحليل السيميائي الاجتماعي من أجل تأويل الخطاب الروائي المغربي؛ إذ يتعلق الأمر بتحليل سيرة "زمن الأخطاء" بصفتها موردا سيميائيا اجتماعيا، أو سيمياءً اجتماعيا استعمله "محمد شكري" من أجل إنجاز أغراض تواصلية تروم تصوير مجتمع المهمَّشين، والإخبار عن مشاكله التي لا تنتهي، ومن ثم رفضها والاحتجاج عليها بطريقة إبداعية. إذ ستُعيننا هذه المقاربة المنهجية على تأويل الرسائل التي عبَّر عنها كاتب هذه السيرة الذاتية بكيفية غير مباشرة في قالب روائي؛ لأننا نفترض أن هذه الرواية بناء دلالي يُكثِّف تأملات حكيمة، وقراءات فاحصة، وتحاليل ناقدة تهمّ الفرد والمجتمع.

مشكلة الدراسة:

يمكن أن نجمل مشكلة هذه الدراسة في سؤال جوهري هو التالي: كيف يسهم التحليل السيميائي الاجتماعي في تأويل الأبعاد الاجتماعية للمعنى في رواية "زمن الأخطاء" لـ "محمد شكري"؟

ويتوزع هذا السؤال المركزي على أسئلة فرعية هي:

- ما السيميائيات الاجتماعية؟ وما موضوعها؟
- وكيف تساعدنا المقاربة السيميائية الاجتماعية على تحليل مُضمرات "سيرة الأنا" عند "محمد شكري"؟

منهج الدراسة:

تستند هذه الدراسة في تحليلها للخطاب الروائي لـ "محمد شكري" إلى التحليل السيميائي الاجتماعي؛ بغرض كشف ما تستتر عنه الرواية من رسائل خفية كامنة في السياق، وما يتوارى من تصورات حول العالم والأفراد خلف البنية اللغوية المتماسكة للنص الروائي.

أهداف الدراسة:

هدفت هذه الدراسة إلى ما يلي:

- رصد مفهوم السيميائيات الاجتماعية، وتحديد موضوعها؛
- تأكيد أن السيميائيات الاجتماعية مقاربة منهجية لتأويل الخطابات، ورواية "زمن الأخطاء" أحد المتون التي يمكن التعاطي معها من منظور سيميائي اجتماعي؛
- تأويل الرسائل المضمرة التي يَوَدُّ كاتب "زمن الأخطاء" توصيلها ضمنيا إلى المتلقي عبر السياق.

المبحث الأول: السيميائيات الاجتماعية والخطاب الروائي

تطلعت السيميائيات إلى بناء نظرية عامة في تحليل الخطابات من أجل التعامل مع مختلف أنساق العلامات استنادا إلى مقاربة تأويلية تُعدّ بُعْدَها التطبيقي أساسا. فلا يتعاطى التحليل السيميائي مع العلامة منفردة، أو معزولة عن باقي العلامات الأخرى، أو مفصولة عن سياق فضائها السميائي الحاضن لها إنتاجا وتلقيا؛ وإنما يدرس العلامات ويُؤوِّلها مُسْتحضِرا بنياتها السوسيوثقافية والتاريخية، وذلك المقصود بالسميوزيس (Semiosis)؛ أيْ دراسة الحركية المفضية بالعلامة إلى أن تُولِّد دلالات ديناميكية متطوِّرة بكيفية غير محصورة، نظريا على الأقل.

من هذا المنطلق، تُجسِّد السيميائيات الاجتماعية (Social Semiotics) فرعا من السيميائيات الذي يُحلِّل العلامة لا من حيث وظائفُها العمَلية، أو بُعْدها النفعي، أو مستواها الصريح، لكن من حيث وظائفُها النسقية الكامنة في استعمالاتها الضمنية داخل الحياة اليومية. والمراد من ذلك أن أية علامة تمتلك دلالات ثقافية إضافية لصيقة جدا بهوية فضائها الثقافي. وقد وُظِّف مصطلح "السيميائيات الاجتماعية" لأول مرة من قبَل "مايكل هاليداي" (Michael Halliday) عام (1978)؛ وذلك عندما تعامل مع اللغة وناقشها بصفتها وحدة سيميائية اجتماعية تُكوِّن– إلى جانب اللباس، والوشم، والعمارة، إلخ– نسيجا دلاليا يُجسِّده المجتمع في نهاية المطاف، فقد نظر إلى "اللغة بوصفها

سيمياءً اجتماعيا (Social Semiotic): اللغة في سياق الثقافة بِعدِّها نسقًا سيميائيا"[1]. وتجدر الإشارة إلى أن الخلفية المعرفية التي تبنّاها ضمن "اللسانيات الوظيفية النسقية" (Systemic Functional Linguistics) قد ساعدته على رصد مُضمَرات اللغة وإيحاءاتها بصفتها نسقا سيميائيا اجتماعيا لا ينفلت من هوية وذاكرة وقيم فضائه السميائي الاجتماعي.

لقد عَدَّ "مايكل هاليداي" اللغة "موردا سيميائيا اجتماعيا" (Social Semiotic Resource) يستعمله أفراد المجتمع لإنجاز أغراضهم من خلال التعبير غير المباشر عن المعاني في السياق، مؤكِّدًا أنّ "اللغة لا يمكن فصلها عن المجتمع. فهو ينظر إليها بصفتها سيمياءً اجتماعيا في أية لغة، والوسائل التي يتفاعل بها الناس، يجب أن تؤخذ بعين المراعاة في سياق اجتماعي. إن اللغة والمجتمع مفهومٌ مُوحَّد ويحتاج إلى أن يكون مُدقَّقا بوصفه كُلًّا"[2].

يمكن توضيح هذا المعطى- حسبه- بأن أعضاء المجتمع يصوغون رسائلهم المختلفة لأداء أغراض معينة ويُعبِّرون عنها بواسطة اللغة، كما هي الحال بالنسبة للغات ثقافية ثانوية كالتشكيل، والرقص، والموسيقى. فَمِنَ المعلوم أنه يمكنهم استعمال هذه الموارد اللغوية للكشف عن التجربة الداخلية والخارجية حول العالم. ذلك أن اللغة طريقة ووسيلة مهمة لنقل ما يحدث حولهم وداخلهم[3]. ولا يبنى معنى العلامة- أو الرسالة- إلا إذا أخذنا في الحسبان "السياق" (Context) و"المقام" المؤطِّرَيْن لعملتَيْ إنتاج اللغة وتلقِّيها؛ إذ تؤثِّر في عملية الفهم أو معالجة رسالة المخاطِب عوامل مختلفة متواشجة مثل: بنية النص، والزمان، والمكان، والتاريخ/ الذاكرة، وأدوات التبليغ والاستقبال، وانفعالات المرسل والمرسل إليه، وخصائصهما المعرفية والثقافية والاجتماعية والنفسية، إلخ. إذ تساعد هذه المعطيات كافة في تأويل الرسالة العميقة التي تتوارى خلف ظاهر القول، وتحصيل أثر الإنجاز اللغوي الذي يودّ المتكلم توصيله إلى المستمع من خلال سياق الكلام. ذلك أن البنية اللسانية- في حقيقتها- "تمثيلٌ" (Representation) يمكنه التلميح إلى أشياء غير ما تُظهِره بنيتها الشكلية السطحية؛ بمقدورها التوبيخ، والتحذير، والتعبير عن الانتماء للهوية، والاحتجاج، والالتماس، إلخ.

[1]- Halliday, Michael. (1978). Language as social semiotic: the social interpretation of language and meaning. Edward Arnold Publishers. London. first published. P 191.

[2]- Mehawesh, Mohammad Issa. (2014). the socio-semiotic theory of language and translation: an overview. International journal of Humanities and social science. vol. 4. N: 8. June. P 90, accessed 20/12/2022, online: www.ijhssnet.com.

[3]- Liu, Ming. (2014). The Social Interpretation of Language and Meaning. Theory and Practice in Language Studies. Vol. 4. No. 6. June. ACADEMY PUBLISHER Manufactured in Finland. P 1238, doi:10.4304/tpls.4.6.1238-1242.

فنحن نُنَظِّم رسائلها اللغوية بالكيفية التي تجعلها مناسبة للرسائل المتداوَلة في دورة الكلام التي ننخرط فيها من جهة أولى، وللسياق الأوسع الذي نتحادث فيه ونتحاور من جهة ثانية.

فليست بنية اللغة وحدها أداة تصريف الرسائل وتمريرها، وإنما تشمل– أيضا– موضات الكلام بوصفها مؤشرات دلالية، وقد تنبّه "هاليداي" إلى هذا الأمر حين عدَّ كل موضة كلامية تعبيرًا عن أسلوب مخصوص لتصريف المعاني سياقيًّا، ولا يمكنك فهْم الخطاب إلا إذا كنت جزءا من الفضاء الاجتماعي، ومُلِمًّا بقواعده التداولية وأعرافه الثقافية وذاكرته الجمعية؛ لكونها عبارة عن خبرات سابقة تُسهِّل الحوار، وتُحصِّل الفهْم. في هذا الصدد، يذكر "هاليداي": من غير المُرجَّح أنْ يظل جزء من النسق الدلالي معزولا تماما عن الآخر؛ عندما يتم توليد معانٍ جديدة على نطاق واسع، يجب أن تتوقع بعض التغييرات في "موضات الحديث". ليس واضحا كيف حدث ذلك؛ لكن من المؤكد أنه لا يكفي تأويل التجديد بأنه تغيير في الموضوع. تتضمن التغييرات التي يتم إحداثها بهذه الكيفية أنواعا من المشاركين من الوسائط، وعلاقات المشاركين، وجميع مكونات النسق الدلالي. يتم إحداث التغيير الدلالي من خلال وسيط البنية الاجتماعية. الأسلوب الدلالي وظيفةٌ من العلاقات الاجتماعية وأنواع الحالات الناتجة عن البنية الاجتماعية. إذا تغيّرت، فذلك ليس بسبب ما يتحدث عنه الناس الآن بل بسبب من يتحدثون، وفي أية ظروف، من خلال وسائل الإعلام وما إلى ذلك. سيتم فهْم تحول الموضة في الحديث بشكل أفضل بالرجوع إلى أنماط التفاعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية المتغيّرة بدلا من البحث عن رابط مباشر بين اللغة والثقافة المادية"[1].

تُؤسِّس جهود "هاليداي" لنظرية سيميائية في التأويل الاجتماعي للغة والمعنى؛ وذلك من خلال التركيز على ما تحتمله اللغة– بمفهومها السميائي الموسَّع– من إمكانات دلالية مصدرها سياق المجتمع والثقافة والتاريخ. فكلما تغير الفضاء الاجتماعي تغيرت الأنساق التعبيرية اللغوية والثقافية والفنية المستعمَلة، وهو ما يعقبها تغير– أيضا– في كيفيات التمثيل للمعاني وطرائق إبلاغها في السياق؛ فالعلامة التي يمكن أن تدل على الفرح في تداول ما، يمكن أن تحتمل الدلالة على الحزن في ثقافة أخرى، وهكذا دواليك.

إن الفكرة الجوهرية التي يمكننا استخلاصها من النظرية النسقية عند "هاليداي" تتجلى في أن "اللغة يُنظر إليها على أنها سيمياء اجتماعي، مما يعني "كيف يستعمل الناس اللغة مع بعضهم البعض في إنجاز الحياة الاجتماعية اليومية"[2]. لذلك، فمن أجل تمثّل جيد للغة من منظور سوسيوسميائي، "يجب فحصها ضمن إطار سيميائي اجتماعي، أو كما يضعها "هاليداي" في واقع

[1]– Halliday, Michael. (1978). Language as social semiotic: the social interpretation of language and meaning. Op. Cit. P 77.

[2]– Liu, Ming. (2014). The Social Interpretation of Language and Meaning. Op. Cit. P 1241.

اجتماعي (أو "الثقافة") هو في حد ذاته صرح للمعاني- بناء سيميائي . ووَفْق هذا المنظور، تعد اللغة أحد الأنساق السميائية التي تشكل الثقافة؛ فهي نسق مُميَّز من حيث أنه يشتغل أيضا بصفته نسقا لترميز العديد من الأنساق الأخرى. هذا بمصطلحات مختصرة المقصود بصياغة "اللغة بوصفها سيمياء اجتماعيا". إنه يعني تأويل اللغة في سياق سوسيوثقافي، إذ تُؤوَّل فيه الثقافة نفسها بمصطلحات سيميائية- بصفتها نسق معلومات (...). إن السيميائيات الاجتماعية تدرس جميع أنواع الأنساق السيميائية الإنسانية، لكونها اجتماعيةً في ظروفها ومحتواها"[1].

تُفهَم السيميائيات الاجتماعية في أطروحات "هاليداي" و"هودج" (Hodge) و"كريس" (Kress)[2] بأنها "حقل يتناول كيفية استعمال الرسائل وتبادلها في مجموعات اجتماعية معينة. فقد ظهرت السيميائيات الاجتماعية لتأويل الأبعاد الاجتماعية للمعنى وسلطة العمليات الإنسانية للدلالة والتأويل في تشكيل الأفراد والمجتمعات. إن البحث عن السيميائيات الاجتماعية وسيلةٌ للإنسان من أجل فهْم حياته. ويظن "كريس" (2010)[3] أن المعنى يتولد في البيئات الاجتماعية ومن خلال التفاعل الاجتماعي (...). ويذكر "فان ليوين" (2005)[4] أن السيميائيات الاجتماعية مقاربة تركز على كيفية تطبيق الناس لاستعمال الموارد السيميائية في مجالاتهم الخاصة، وحيث يمارسون ممارسات اجتماعية بعينها"[5].

وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نعد السيميائيات الاجتماعية إضافة نظرية وتطبيقية إلى حقل السيميائيات وتحليل الخطابات؛ إذ يوفر هذا الفرع من السيميائيات "افتراضات عامة حول المجتمع والمعنى"[6]. وهذا معناه النظر إلى الفضاء الاجتماعي بصفته فضاء سيميائيا (Semiosphere)- إذا اقتبسنا مصطلحية "يوري لوتمان" (Juri Lotman) في سيميائيات الثقافة (Semiotics of Culture) عند مدرسة تارتو موسكو- لاشتغال السميوزيس الاجتماعي (Social Semiosis)، وكونًا سيميائيا حيث تتفاعل أنساق علامات اجتماعية وظيفية مختلفة. ويُصطَلح على هذه الأنساق في ميدان التحليل السيميائي الاجتماعي اسم: الموارد السيميائية (Semiotic Resources)، وهي

[1]- Mehawesh, Mohammad Issa. (2014). the socio-semiotic theory of language and translation: an overview. Op. Cit. P 90.

[2]- Hodge, Robert. and Kress, Gunther. (1988). Social semiotics. Cambridge. Polity.

[3]- Kress, Gunther. (2010). Multimodality: A contemporary communication. Oxon: Routledge.

[4]- Leeuwen, Theo Van. (2005). Introducing social semiotics. Oxon: Taylor and Francis.

[5]- Janssen, Amanda. (2017). Social semiotic multimodal analysis of discourse in banking. In: Text- based research and teaching. ed. P. Mickan and E. Lopez. Palgrave Macmillan. P 76, accessed 20/11/2020, Doi: 10.1057/978-1-137-59849-3_5.

[6]- Hodge, Robert. and Kress, Gunther. (1988). Social semiotics. Cornell University Press. Ithaca. New York. First published. P 2.

تشمل مجموع العلامات اللسانية والممارسات الاجتماعية التي تُعبَّأ بالقيم والخبرات والمعارف والتجارب والانفعالات والمعتقدات الجمعية التي تُسهِّل التواصل والاندماج والتعايش والتفاهم والتكامل، وهي موارد سيميائية يُنتِجها أفراد المجتمع للتعبير عن تنظيم فضائهم الاجتماعي، وانسجامه، وتماسكه، بالنظر إلى أن الثقافة هي المسؤولة عن تنظيم مجال المجتمع، وبرمجة سلوكيات أفراده، وضبط تصرفاتهم وعلاقاتهم، وبناء تصوراتهم حول العالم. من هنا يتأكد– مرة أخرى– أنه لا خلاص لتحقيق فَهْم جيد لأيّ مورد سيميائي إلا بتأويله في سياق مجتمعه، وثقافته، وتاريخه.

يُبيِّن ما تقدّم الإطار النظري والمنطلق المعرفي الذي نشتغل ضمنه في تحليلنا لأنموذج من الخطاب الروائي المغربي. واستنادا إلى ذلك، لا يمكن لتحليلنا السوسيوسميائي أن يركز على تحليل بنية النص الروائي من حيث قواعدُ التماسك، أو جملُ النص من حيث هي تأليفات متَّسقة ومنظَّمة؛ وإنما يجب التعامل مع القواعد اللغوية بوصفها موارد لبناء المعاني[1]. ومعنى هذا أن المقاربة السيميائية الاجتماعية لخطاب الرواية تتعدى الوقوف عند وصف القواعد التي تشكل بنية النص إلى التعاطي مع الإبداع الأدبي بصفته نسقا سيميائيا اجتماعيا؛ ذلك أن هذا المفهوم الأخير إجراءٌ يمكّننا من تمثيل اللغة بصفتها موردا[2]، إذ ليس النص الإبداعي سوى طريقة من طرائق تمثيل المعنى، إلى جانب التشكيل، واللباس، والزخرفة، إلخ. ويُمكِّننا اعتماد مفهوم النسق من تأويل النسق اللساني– في السياق الاجتماعي– بما هو نسق اجتماعي[3]، وهو انتقال معرفي ومنهجي من دراسة اللغة البنية إلى تأويل اللغة النسق الاجتماعي أو السيمياء الاجتماعي، بمعنى التحول من وصف قواعد اللغة معزولة عن ظروفها التداولية إلى التأويل الاجتماعي للغة مُدمَجة في سياق فضائها الاجتماعي. وهي مقاربة منهجية تروم كشف ما يودّ كاتب "زمن الأخطاء" توصيله إلى المتلقي من معانٍ مضمَرة في السياق.

المبحث الثاني: التأويل الاجتماعي للمعنى في الخطاب الروائي المغربي: "زمن الأخطاء" أنموذجا

ثَبَتَ مما ذُكِر أن السيميائيات الاجتماعية مقاربة لتأويل الممارسات والأنشطة الاجتماعية اللفظية وغير اللفظية التي يستعملها أعضاء المجتمع من أجل إنجاز أغراضهم، وذلك من خلال التعبير عن معانٍ ضمنية في السياق، أي إنها مقاربة منهجية لتحليل ما يقصده الأفراد من استعمالهم للغة– اللسانية والثقافية الفنية– في السياق، بمعنى كشف ما يتوارى خلف البناء اللغوي الشكلي للرواية

[1]– Leeuwen, Theo Van. (2005). Introducing social semiotics. Routledge. London and New York. First published. P 3.

[2]– Halliday, Michael. (1978). Language as social semiotic: the social interpretation of language and meaning. Op. Cit. P 192.

[3]– Ibid.

بصفتها أنموذجا للتحليل السيميائي، بالنظر إلى أنها أحد التنويعات السيميائية والأشكال التعبيرية التي يستعين بها الأفراد من أجل التصريح بأشياء والتلميح إلى أخرى. وستكون هذه الممارسة التأويلية مقيَّدة بموجِّهات منهجية تشمل حدود الزمان، والمكان، والتاريخ، والمقام، والسياق الاجتماعي والروائي، والحالات النفسية والمزاجية والانفعالية الكاتب؛ لأنها مؤشرات دلالية حاسمة في عملية بناء المعنى.

تبعا لذلك، تُقدِّم هذه الدراسة قراءة سوسيوسيميائية في رواية "زمن الأخطاء" لِـ "محمد شكري"، وهو تحليل يُوضح كيفية استعماله لجنس الرواية بعامة والسيرة الذاتية بخاصة للإيحاء بأشياء وموضوعات يحجبها ظاهر النص الروائي ونفعيّته؛ لأن مغزى الراوية كامن في "ما وراء أدبيتها"، ومُتوارٍ خلف ما يُقال بشكل جاهز ومباشر. ذلك أن التحليل السوسيوسيميائي يتعدى الخطاب المباشر إلى تحصيل ما "يقصده"، أو "ما يحتمله" من دلالات، أو "ما يمكنه فِعْله" بواسطة اللغة.

1.2. "زمن الأخطاء" جزءٌ من سيرة

تُعد رواية "زمن الأخطاء" حلقة ثانية من ثلاثية روائية تُكوِّن السيرة الذاتية للروائي المغربي "محمد شكري" (1935– 2003)، وهي: "الخبز الحافي" (1972)، و"زمن الأخطاء" (1992)، ثم "وجوه". بهذه الأعمال الروائية وحدها، يمكن للقارئ تتبّع الخيط الناظم لحياته، والتعرف على أهم أحداثها، واستخلاص أبعادها ودلالاتها العميقة. وقد جعل من "زمن الأخطاء" سِجلًّا شخصيا لتدوين نظرته للمجتمع، والحياة، والمرأة، والحب، والزمن، والمكان؛ فهي عبارة عن "ذاكرة فردية" يُوثّق فيها محطات حياته الفريدة والعجيبة، وهي في الآن ذاته جزء من ذاكرة جمعية عالجت ما كان يتقاسمه جيله بالمغرب خلال فترة ما بعد الاستقلال.

يُتيح هذا العمل الروائي التأمل في الأفراد والمجتمع؛ فهو مليء بمجموعة من الموضوعات (الثيمات) التي تحتاج إلى فحص ونقد وتحليل سيميائي من منظور اجتماعي. ويتخذ "محمد شكري" في هذه الذاكرة الروائية عدة مواقع؛ فهو ملاحظ وناقد ومُتمرِّد تارة، ومُنغرِس ومشارك– بعشق، وَهَمٍّ– في الأحداث تارة أخرى. فهو عينه المؤلِّف، والسارد، والشخصية الرئيسة، والبطل أيضا. لذلك، نجده يكتب، ويسرد، ويصف، وينتقد، ويقرأ، ويُحلِّل، ويتأسّف، ويحتجّ، ويتمرد. لقد كانت هذه التجربة الروائية درسا بليغا وقاسيا بالنسبة له؛ فقد أدرك أن تعلم القراءة والكتابة– رغم التقدم في السن– مدخلٌ إلى التخلص من الفقر والتهميش والانعتاق من حياة الريف القاسية، وفرصةٌ للكتابة عنها وتصويرها لأنه طرف فيها. ولا يريد "شكري" من كتابته للسيرة الذاتية سوى أن تكون بَوْحًا لم يَعْهَده القارئ، لذلك نجد لغته مباشرة وشفافة لا تأبه للزخرفة والتزيين، وإنما يَعُد الكتابة "احتجاجا" على المجتمع ومشاكله المتجذِّرة.

1.2. التعلمُ انْعِتَاقٌ من التهميش الاجتماعي

ألّف "محمد شكري" روايته لتكون "تمثيلًا" أو "ماثولا"– بمصطلحية "شارل سندرس بورس"– لمجموعة من الموضوعات الاجتماعية التي تدل على معانٍ مُضمَرة؛ فقد أراد من إنتاجه الروائي أن يكون "ثورة سلمية" لا تُعَدِّدُ أعراض المجتمع ومعاناة أفراده فحسب، لكن ابتغى من الكتابة الروائية أن تصير أداة للاحتجاج على الإحباط النفسي والاجتماعي. لذلك، فإن هذه الرواية لم تكن– كما يشير إلى ذلك مستواها التقريري، أو الصريح– نصًّا متماسك الجمل ومتَّسق البناء، بل كانت قناته التواصلية الوحيدة التي أجادها– بعد جهد، وتضحية، وإصرار– من أجل توصيل رسائله إلى المتلقي.

تتعدد وتتنوع المشاكل الاجتماعية التي رافقت حياة "شكري"، وشكلت– عنده– موضوع تأمّل، وقراءة، ونقد. وهي المشاكل ذاتها التي ستؤثر سَلبا على نفسيته لاحقا. لقد أدرك أن التعلم منفذه الوحيد نحو إحداث تغيير اجتماعي، وأداة لفْهم العالم وفحص ممارساته، ووسيلة مثلى لإعلانه رفضها، بعدما تيقّن أن واقعه البئيس في طنجة لن يغيّر شيئا أبدا– "لكني أُفضِّل أن أدرس. لقد كرهت ما كنت أعمله في طنجة"[1]– وأن التغيير الاجتماعي ينطلق من الذات ويعود إليها لإصلاحها وتهذيبها، ويمتد تدريجيا إلى الجماعة، لكن يُشتَرط أن تكون ذاتًا متعلِّمة ممتلِكة لأدوات القراءة والكتابة؛ أي مُتقِنة لآليات قراءة النصوص الأدبية والاجتماعية، ومُجيدة لمهارات الكتابة عنها أيضا.

كان المعهد الديني بمدينة العرائش بوابة "شكري" نحو المعرفة، بتوصية من صديقه "حسن". لكن سلوك هذا الأخير غير الأخلاقي، وكِبَر سنّ شكري أفشلا التحاقه أول الأمر. "آسف. إن المستوى الدراسي الذي تستحقه يدرس فيه أطفال صغار وأنت لك لحية. والذين هم أكبر منهم سنًّا يحفظ معظمهم القرآن، والجارومية، وابن عاشر"[2]. لقد شكل هذا الخبر بالنسبة له خطوة إلى الوراء للعودة إلى ليالي طنجة لعينته، على حدّ تعبيره. لكنه كان مدركا أن تحدّي القراءة والنجاح فيه مدخل أساس إلى كل التعلمات: أنْ يتعلم ليعرف، وأنْ يتعلم ليَكُون، وأنْ يتعلم ليعيش مع الآخرين، وأنْ يتعلم ليفهم، وأنْ يتعلم ليكتب، وأنْ يتعلم ليتخلّص من مشاكل المجتمع، وأنْ يتعلم ليُنتِج عالمًا روائيا بديلًا يُنْسيه آلامه المعيشة وآماله المحطَّمة. "فكّرت لنفسي: إن الأنبياء لم يكونوا في حاجة إلى من يعلمهم. كل شيء كان ينزل عليهم جاهزًا. أما من ليس منهم ينبغي له أن يتعلم، مثله مثل القرود"[3]. "أما أنا فينتظرني الجنون إذا لم أتعلم"[4]. لذلك، لا خلاص له إلا في التعلم؛ ذلك أن "الإنسان هو كيف ينتهي وليس كيف يبدأ"[5]. وهذه رسالة عميقة أنْهَت الفشل، وفتحت أبواب الطموح.

[1]– شكري، محمد، (2020)، زمن الأخطاء، ط 2، الدار البيضاء، المغرب، دار الفنك للنشر، ص 8.
[2]– المرجع نفسه، ص 9.
[3]– المرجع السابق، ص 9.
[4]– المرجع السابق، ص 70.
[5]– المرجع السابق، ص 158.

امتحانات "شكري" لا تنتهي في حياة الفقر، وقد لاحقته إلى فضاء المعهد أيضا. فقد اختُبِر كتابيا في مادة الحساب (الرياضيات)، وشفهيا في اللغة الإسبانية، ففشل في الأول، ونجح في الثاني؛ بالنظر إلى انغماسه اللغوي واندماجه الاجتماعي مع جيرانه الغجر والأندلسيين بكل من طنجة وتطوان. وهذا دليل على ميوله إلى اللغة والأدب على حساب المواد العلمية. وقد التحق بأوّل درس عند المعلم "سي محمد"، "في القسم تلاميذ في مثل سني، لكنهم يعرفون القراءة والكتابة. على السبورة، درس مكتوب، وأمامهم الدفاتر"[1]. "ينقلون الدرس المكتوب على السبورة. تُرى ماذا ينقلون؟ أمامي دفتري، وقلمي، في انتظار كيف أبدأ أول درس. كانت رموز العالم تنتقل إلى صفحة رفيقي في الطاولة وصفحتي بيضاء. أُحذِّق فيهم وأفكر: يكتبون بخفة. أيتركني المدير أتعلم مثلهم؟ إذا لم يتركني فَحَتْمًا سأعود إلى طنجة لكي أعاشر مُحترفي الفسق دون أن أعرف شيئا مما يحدث في هذا العالم، من خلال رموزه. مادمتُ قد جئت فينبغي لي أن أعلم. الحياة الحقيقية توجد دائما في الكتب"[2].

اكتشف "شكري" عالما جديدا ابتدأ بتَكرار كتابة بعض الكلمات التي دوّنها المعلم على دفتره، وقد تكررت مع رفيق طاولته، بطلب من المعلم. لم تخلُ هذه العملية من مشقّة وارتعاش لِيَدِهِ التي لم تعْتَد الكتابة بعدما ألفت السيجارة والخمر والمرأة، إذ يتعين عليه أن يُتْقِنَها الكتابة كما احترفت الفسق، ويجب على جهازه الصوتي أن يُجيد نطق الأصوات وقراءتها بشكل صحيح مثلما كان يُداعب النساء بكلمات جميلة ودافئة، ليحصل على ما يريد. فهذا طموحه الكبير، والتغيير الجذري الذي ينشده.

لقد كان "شكري" بمدينة طنجة مغبونا في صحّته، ومخدوعا في وقته؛ بسبب أخطائه. فهو لا يعرف سوى الحروف التي علمّه إياها "حميد". فالفجوة الثقافية والمعرفية التي تفصله عن زملائه بالمعهد الديني جعلت طنجة رمزا للدمار النفسي والاجتماعي، بينما صوّر المدرسة بصفتها فضاء لإصلاح الذات وتطهيرها: "كأني في مكان مقدس أُدنِّسه، ولكن قد يكون بينهم مَنْ هُمْ أبناء هؤلاء المنحوسين مجتمعين. عزَّيْتُ نفسي. إنني في مَطهر إذن. لو لم يأتوا، هم أيضا، إلى هنا، فَلَرُبَّمَا يصيرون مثلما كنت. زالت كآبتي وأنا أدافع عن نفسي حتى لو كنت مخطئا فيما تصورته عنهم. صارعتُ فكرة البقاء هنا أو العودة إلى طنجة. إن مَرجي الآسن ينتظرني هناك أو في أي مكان آخر، لكني سأبقى هنا حتى لو زالت زرقةُ السماء إلى الأبد من حياتي"[3].

وجد "شكري" بالمعهد تعاطفًا وتعاونًا افتقده سابقا؛ تجلى ذلك في تدريبه على كتابة الكلمات، وتعليمه اللغة الإسبانية من قبَل "ميلودي". "يعلمونني المواد التي أدرسها أو التي يراجعونها معي في دفاتري. حسَن يعلمني الإنشاء بمحبة ولا يتذمر أبدا. أخطائي كثيرة، لكن تجاربي في المواضيع جيدة.

[1]– المرجع السابق، ص 17.
[2]– المرجع السابق، ص 18.
[3]– المرجع السابق، ص 19.

عندما أسأله عن قاعدة نحوية يقول لي: لا تعبأ بعلة المنصوب أو المرفوع. المهم هو أن تعرف الكتابة والقراءة السليمتين. هناك من يعرف قواعد النحو بشكل جيد، لكنه إذا كتب أو قرأ قد يرتكب القاعدة التي يحفظها ويعرفها في أكثر من مرجع نحوي"[1]. فَبدَهيّ جدا أن تكثر أخطاء "شكري" في القراءة والكتابة خلال مراحله التعليمية الأولى، لكنها لا يمكن أن تصل إلى درجة أخطائه في المجتمع التي يطمح إلى التخلص منها بواسطة الكتابة.

تغلغلت ليالي طنجة في أعماق نفسيته، وسكنته. "اشتياقي إلى لعينتي طنجة يحزنني. لها عندي طعم مُغْرٍ حتى في أحقر ظروفي فيها مَهانَة. لا أكاد أغادرها سَئِمًا منها حتى يُوَتِّرني حنينٌ جنوني بها كما كنت في وهران أشتاق إلى تطوان. ثيابي تتسخ وتبلى وتفوح منها روائح جسدي. القمل يعشش فيها"[2]. ولم تكن شخصية "شكري" سوى أنموذج للفرد الذي يعيش الفقر، والتهميش، والجهل، والتشرد، وتدخين الكيف، والنوم في الشوارع والمساجد. لكن ما يُفرِّد هذه الشخصية حبها للتعلم، وتحليلها الناقد للمجتمع، وفحصها الثاقب لعيوبه، ورغبتها في إصلاح الذات والمجتمع أيضا. ومع ذلك، فإن حياة "شكري" مُظلِمة اجتماعيا تتخلّلها لحظات نور، وزميله "المختار الحداد الأعمى" أحدها، فهو المتفوّق في علوم العربية، والحافظ لكتاب الله، والعارف بحديث نبيّه. فدائما هناك أمل مهْما كانت طبيعة الظروف.

لا تختلف ظروف شخصية "المختار الحداد" كثيرا عما تعانيه شخصية "محمد شكري"، وربما هذه حال تلاميذ المعهد الديني كافة. فَهُم يتقاسمون الأحوال الاجتماعية والنفسية نفسها: البؤس، والفقر، لكنهم يمتلكون حافزية فريدة على التعلم. "كنا نحترم فقرنا ونتآزر. كلُّنا، تقريبا، كنا فقراء. يعتبر المستغلون فقرنا شيئا طبيعيا"[3]. بالنسبة لـ "محمد شكري"، يشكل لقاؤه بالمختار الحداد تغذيةً تمنحه طاقة جسدية للبقاء حيًّا، وأخرى معرفية تُنير ظلمات جهله (التعلم بالنَّظِير، أو القَرِين)، وكلاهما مُهمَّان لعيش الحياة، وتأملها، والكتابة عنها. "بعد الإفطار أخذت أقرأ له كتاب مدامع العشاق الثلاثة. عندما أعجز عن نطق كلمة صعبة يساعدني على قراءتها طالبًا مني إعادة قراءتها أكثر من مرة"[4]. وقد اكتشف "شكري" أن تنمية معارفه، والرفع من تعلماته أجود خارج الفصل؛ ربما لأن أصدقاءه فقراء مثله، ولا يتذمرون عندما يخطئ، ولهُم صبر جميل للتعليم، عكس بعض أساتذة المعهد الذين كانوا يمارسون التدريس باحتقار، وكراهية، وغضب.

[1]– المرجع السابق، ص 24– 25.
[2]– المرجع السابق، ص 27.
[3]– المرجع السابق، ص 22.
[4]– المرجع السابق، ص 29.

إن تصوير "شكري" لفعل التعلم مُميَّز؛ فهو لا يرتبط بمكان معين، ولا وقت معلوم، ولا موقف محدد، ولا بشخص ما. لقد كان كل همّه أن يستغل الوقت المتبقّي، وأن يستعجل التعلم؛ هربًا من أخطائه وَكَبْحًا لها أيضا، ورغبةً في امتلاك آليات تمكنه من تدوين أخطائه والكتابة عنها. فهذه رسالةٌ من "شكري" إلى الجميع مغزاها: أن لا شيء مستحيل مهْما كانت الظروف، فَأَنْ تتعلم القراءة والكتابة معناه أن تتغيّر نظرتك للعالم، وتصورك للآخر، وتعاملك مع الزمان والمكان. "كنت أستعجل تعلمي بجنون في جميع الظروف القاسية (...). صارت القراءة والكتابة عندي هَوَسًا في الحلم واليقظة. أتخيّل نفسي، أحيانا، حَرْفًا كبيرا أو قَلَمًا. بئسًا للحل المُكوبَس! أحيانا، لا أجد ثمن دفتر فألتقط الأوراق البيضاء المستعملة لأكتب عليها دروسي. (...) قذارتي وهزالي أنسياني التفكير في الملذات الجسدية. أحسّ كما لو أني لم أتمتع أبدا بها"[1].

وعلى هذا، يمكننا أن نلحظ تغيّرا كبيرا في حياة "شكري"، يتجسد في الانتقال من "لذة الجسد" إلى لذة القراءة والكتابة. ذلك أن اللذة نفسها، لكن تغيّر عامل الإشباع والارتواء، وتبدّل الهدف من متعة المرأة إلى متعة إبداع النص الأدبي وإتقان كتابته. "القراءة صارت تخفف عني الإدمان على الخمر والكيف"[2]. إن "شكري"- في هذه الحالة- كما لو كان طفلا ذي عامين يحاول الفِطام عن ملذات الجسد والفصال عنها، فالذات التي تعشق ليالي طنجة هي نفسها قادرة على عشق القراءة والكتابة بكيفية مضاعَفة، إذ يمكنها أن تتورط في حبّ المعرفة أبدًا. ومن هنا، فقد جعل من مكان المدرسة "تمثيلًا" يرمز إلى موضوع ديناميكي يتمثل في التطهير، وإعادة الخلق من جديد؛ أيْ تخليص "شكري" من ليل طنجة الموغِل في الفحش إلى ليل المطالعة والتدوين. لقد كان موقِنًا أن شخصيته في مرحلة ما بعد التعلم أعمقُ معرفة وتحليلا وفهْمًا من السابق، وأن ما يطرحه من أسئلة اجتماعية ووجودية سيجد إجابات عنها فيما سيقرؤه؛ إذ وجد تفسيرات للحب، والفقر، والتهميش، والجنس، والدعارة، والخمر، والمرأة، إلخ. ولم يكن دافعه إثراء معارفه وتنمية كفاياته التحليلية لهذه الظواهر الاجتماعية فحسب، وإنما تجلت غايته في جعلها موضوعات يكتب عنها بطريقة احتجاجية تعكس تأملاته في مشاكل المجتمع، وقدراته على تصويرها بلغة قوية. لذلك، جسدت هذه الرواية شكلا من أشكال الاحتجاج على الأمراض التي يعاني منها مجتمعه. فقد كتب عنها ليتخلص منها، بعدما عاشها بعشق.

ستصير- إذًا- مهارتَا القراءة والكتابة وَسِيلَتَيْه في فهْم الظواهر التي يصادفها في مجتمعه والكتابة عنها. وقد ساعدته هذه المكانة في أن يمارس أشياء نبيلة تارة، وطريفة تارة أخرى؛ فقد حدث أن أصبح مُدرِّسا لـ: "سلوى" بنت "فطيمة"، أيْ أستاذا لدروس الدعم والتقوية لكيْ لا تصير مومِسًا

[1]- المرجع السابق، ص 30.

[2]- المرجع السابق، ص 42.

مثل أمها، أو تُكثِر من أخطائها مثل "شكري"؛ فقد أدرك أن التعلم إنقاذ من الضياع والتهميش وحياة الشارع. وفي هذا السياق، فإن "شكري" يُمرِّر رسالة عميقة من وراء البناء المتسق لنصه الروائي مفادها أن لا شيء مثل المعرفة؛ إذ تفتح لك أبواب الانعتاق من أمراض المجتمع ومشاكله، وتغلق في وجهك أبواب آفاته؛ فكلما تقدّمت في التعلم، اتّضحت الطريق واكتسبت خبرة. أما طرائف "شكري"، فتمثلت في ممارسته لمهنة العدول حين وثَّق بطريقة تقليدية عقد قران مسكين بمسكينة!، حلايقي (راوي حكايات) وبائعة بخور. "لم تحضرني أية شريعة تمنع ما سأقوم به. إن الفقر فوق القانون. (...) أحضرْ لي ورقتين بيضاوين. تركني أكتب العقد وخرج. سجلت أيضا متاع كل منهما. سلمت للرجل نسخة وأمَّنْتُ الأخرى عند السي عبد الله. جاءنا بالشاي مرة أخرى وَدَعَا بالبركة"[1]. ثم إن فَقْر "شكري"– أيضا– دفعه إلى الاشتغال في الإرشاد السياحي؛ وذلك عندما عرض على زوجَيْن إنجليزيَّيْن كَهْلَيْن خدماته، فَرَاقَتْهُمَا صُحْبته. لقد كان يعرف ما يكفي من الكلمات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية لإرشادهما. فجميلٌ هو الفقر: إنه دافعٌ فريد نحو التغيير للأجمل؛ فقد يدفعك إلى ممارسات غير مؤهَّلٍ لها أو ممنوعة، لكن الفقر أسمى من القانون، على حد تعبير "شكري". ونفهم من ذلك أن السرقة، والإجرام، وانتحال الصفة– على سبيل المثال– ملامح سَلبية متغلغلة في الأحياء الهامشية وذُور الصفيح، فلا مُسوِّغ قانوني لانتشارها، لكن الفقر والافتقار إلى مورد مالي منحنها شرعية مستقبلية مُزيَّفة. من ناحية أخرى، يجب أن نستغل الدافعية الداخلية القوية التي يمتلكها الفقراء من أجل التعلم– و"شكري" أحدهم– ونيل المراتب العليا، فما يحتاج إليه طالب العلم من عزيمة وصبر ومشقة ومثابرة وقلة المصدر المالي أو ندرته في أحايين كثيرة، مُتأصِّلٌ في أبناء الفقراء، وكامِنٌ فيهم. فَهُمْ يألفون الفقر، ويألفهم، بل قد يحدث في بعض الأسر أن يغدو الفقر مُتوارَثًا.

تُوِّجَ كفاح "شكري" بالنجاح في مباراة الدخول إلى مدرسة المعلمين بتطوان. "أحسست كأني ولدت من جديد. اعتقدت أني بنيت جدارا منيعا بيني وبين الاحتقار الاجتماعي، والجهل والبؤس"[2]. غمر الفرح أمه لهذا الحدث النادر، فأهدته سترة، وقميصا، وسروالا. وبالموازاة مع فترة التكوين، ازداد تعلق "شكري" بمواد اللغة العربية على حساب دروس علم النفس التروي والتشريع المدرسي. "ضبطني أستاذ التربية وعلم النفس أقرأ البؤساء فأخرجني صارخا: هذه قاعة درس وليست مكتبة"[3].

تطوّرت علاقته باللغة والأدب يوما بعد يوم؛ لأن التعلم تعديلٌ في السلوك، وتنمية للكفايات، وإتقان للمهارات، وتمكن من المعارف، واستثمار للتعلمات في حل وضعيات مشكلات دراسية وحياتية. وموازاةً لذلك، سيكون من الضروري أن تتغير عاداته وطقوسه اليومية، وتتطور آفاقه ونظرته إلى

[1]– المرجع السابق، ص 58– 59.
[2]– المرجع السابق، ص 82.
[3]– المرجع السابق، ص 95.

الحياة. فقد انتقل مكان المقهى من علامة على التدخين والخمر والنوم إلى كونه رمزًا للمطالعة والنقاش الفكري، أيْ مكانا للقاء الكتاب والشعراء والمفكرين، بعدما ظن "شكري" أن الأدباء لا يرتادون المقاهي، ولا يتحدثون إلى عامة الناس إلى أن رأى الأديب "محمد الصباغ" الذي دحض فرضيته، وهذه فرصة أخرى للتعلم. فطَوال هذه الفترة، أيقنَ "شكري" أن الكِتاب وسيلة التثقيف الأولى، وأن المعلم النبيل مُوجِّه ومُعِين فضلُه لا يُرَد، لذلك اقتنى كُتب "محمد الصباغ" فقرأها، قبل لقائه بمقهى "كونتيننتال". "لقد قرأت كتبك بإعجاب كبير. أنا أيضا أريد أن أكتب. هذا أول ما كتبته. أرجو أن تصححه لي وتعطيني رأيك فيه"[1]. كانت "حديقة العار" أول ما كتبه ابن الريف في ثلاث صفحات، ومما يوحي به العنوان أن الحديقة استُعملت مجازيا لتعبر عن الحقيقة لا العكس. فكان الحكم والتقييم كالتالي: "لغتك لا بأس بها. استمر في الكتابة بانضباط واقرأ كثيرا"[2]. فهذه وصيته لـ"شكري": أنْ يقرأ باستمرار، وأن يكتب بِتَأَنٍّ. وقد أفاد كثيرا من صحبة "محمد الصباغ"؛ إذ صار هذا الأخير مُوجِّهًا له في الشعر والأدب والنثر، ومُصحِّحًا لأخطائه اللغوية، بل معلمه الحقيقي. وقد توَّجت تعلماته القرائية والكتابية بنشر قطعة نثرية في جريدة "العلم" بعنوان: "جدول حبي"، وسنُبيِّن لاحقا لِمَ هذه الثيمة أساسا. ابن الحانات، والريف، والمقاهي، والبرّاكة، ينشر أدبا. هكذا سخر من نفسه، وعلّق على إنجازه. لقد أراد أن يُظهِر لنا أن النجاح سُلَّم يتسلقه الفرد في أيّ وقت توافرت لديه دوافع العزيمة والإصرار والصبر، رُغم قسوة الظروف الاجتماعية. فلا شيء أقسى من أن تخذل نفسك؛ "فالأسوأ ليس ألا ننتظر شيئا من أحد، بل ألا ننتظر شيئا من أنفسنا"[3]. إن خذلانك لنفسك أقسى من خذلان الجميع؛ لأن الإصرار يخلق المعجزات، وتَسلّل الفشل إلى دواخل الفرد يُطفِئ كل حافز على الفعل والتغيير. وقد عرفَ "شكري" كيف يُجنِّدُ ذاته، ويُشغِّل آلياته أُفقًا للتعلم والانعتاق من المعيش الاجتماعي القاسي.

إن مجتمع الفقر مجالٌ حيوي للمشاكل التي لا تنتهي، وهذا العمل الروائي الاجتماعي يُضمِر رسائل في سياقَيْ النص والمجتمع، إذ تتعدد وتتنوع هذه الأمراض الاجتماعية التي يصوِّرها "شكري" في قالب سردي، لعل أبرزها ما ارتبط بالحياة اليومية لشخصيته. فقد عرضت الرواية– إضافة إلى ما ذُكِر– للعلاقة المتوترة والمتشنجة للابن مع أبيه، وللعلاقة الحميمية القوية والعميقة بين الابن ذاته وأمه. إذ لم تكن موضوعة الأسرة علامة على الوحدة والتكامل والتضحية كما هو معلوم، وإنما رمزا للتفكّك والعنف والتفرقة، وهي ملامح اجتماعية سَلبية لا تخلو منها أُسَر الهوامش والضواحي. فهذا الإحساس المتناقض تبدى عند رسوب "شكري" في امتحان التخرج من مدرسة المعلمين بتطوان؛ "لقد

[1]– المرجع السابق، ص 97.

[2]– المرجع السابق، ص 97.

[3]– مرشيد، فاتحة، (2019)، انعتاق الرغبة (رواية)، ط 1، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص 77.

أهملت، عمدا، كل مواد الدراسة لأقرأ الأدب، لكن تعييني في طنجة عزّاني"[1]. سُرَّ أبوه للأمر، أما ملامح أمّه فقد أماءت له بكل شيء.

لم يتوقف كفاح "شكري" في الحياة عند مغادرة الريف، بل امتد إلى مهنة التدريس. إذ عُيّنَ بمدرسة الحي الجديد للبنين والبنات بطنجة، وأُسنِد له القسم التحضيري. إن "القسم، في جانب من الساحة، براكة من خشب تقطر في الشتاء وقد ينقّ قربها الضفدع. أكثر من أربعين تلميذا في كل سنة. عدد البنات لا يتجاوز الربع. إنه نداء التعبئة من أجل التعليم بأبسط الوسائل الممكنة"[2]. نافذة أخرى تنضاف إلى "شكري" لكي يكتشف مشاكل التعليم؛ حيث الاكتظاظ، وضعف مرافق التمدرس، وفقر التلاميذ، وبساطتهم، وبؤسهم، وجهلهم، وحتى حُمقُهم في بعض الحالات. إذ يتعين على "شكري" الفقير أن يُعلِّم تلاميذ فقراء مثله، "أدركت أني لست أهلا لهذه المهنة. ينقصني الصبر الجميل للوفاء لها، لكن لم يكن لي الخيار"[3].

3.2. الحب أسطورة: الحب خَيْباتٌ لا تنتهي

تتوزع أمراض مجتمع "شكري" على المشاكل النفسية والمشاكل المادية، أهمها: الحب. إذ تُصوِّر الرواية هذه القيمة الإنسانية النبيلة التي تُحصِّن العلاقات وتُديمها بأنها همٌّ، ومطاردة للوهْم؛ لأن المرض تسلل إلى كل شيء جميل ونبيل في الحياة. فكلما اقتربت من الحب، أُصِبت بخيبة لم تكن تتوقعها؛ لأن الحب في المجتمعات الذكورية ظاهريّ وجسدي فقط، لذلك فهو عابر وعَرَضِيّ، وليس دائمًا كما هو في العرف الإنساني. و"شكري" أحد ضحاياه، مما أدى به إلى أن يعالج فشله العاطفي بممارسات تُحطِّم الجسد، وتُدمِّر النفسية، وتزيد الهمّ هموما مُضاعَفة: الدعارة، والتدخين، والخمر، وهي أخطاء ستصير – عنده– حُبًّا من جهة، وألمًا وإحباطًا من جهة أخرى. "إنها تريد أن توقعك في فخ حبها. ابتعد عن حب العاهرات (...). أَغْرِقْ نفسك في الجنس تَنْسَ هموم الحب. إن الحب هَمٌّ كبير مثل خبز الفقراء"[4].

يُقدِّم "شكري" في هذا العمل الروائي تصوريا جريئا لموضوعات مسكوت عنها. فقد جعل المرأة– مثلا– في المجتمعات المتخلفة علامة على التسلية والمتعة واللذة؛ فهي لا تصلح سوى لتُنْسِي الرجل همومه وأحزانه، وتشبع عطشه العاطفي. لذلك، فكل منْ يطارد حبًّا، فهو يتعقب جنّيًّا، وستتبعه اللعنة، فهو مثل مَنْ يبحث عن سِرّ مدفون ومُخبَّأ لا يمكن العثور عليه في مثل هذه المجتمعات. وتُظهِر

[1]– شكري، محمد، (2020)، زمن الأخطاء، مرجع سابق، ص 114.
[2]– المرجع نفسه، ص: 118.
[3]– المرجع السابق، ص 120.
[4]– المرجع السابق، ص 39.

الرواية أن كل مجتمع يغيب فيه الحب كأسمى قيمة إنسانية، مصيره التفكك الأخلاقي والانحلال الأسري.

إن "زمن الأخطاء" خطاب روائي يمرِّر رسائل عميقة تُخبر بمعلومات عن المرأة، والمجتمع، والقيم، والأفراد، والعلاقات الاجتماعية، لكن الخيط الناظم بينها أنها رصد لظواهر أدمنها المهمَّشون، رجالا ونساءً. وقد كان طموح "شكري" منذ البداية إجادة القراءة وإتقان الكتابة من أجل فهْم المجتمع ونقده، والتأسيس لكتابة روائية احتجاجية تتمرد على أعراف السيرة الذاتية؛ فقد تولدت هذه السيرة الذاتية من "وعي شقي يحتفي بالأخطاء الكبرى إلى درجة هجاء الذات والانتقاص منها. حيث تزخر الرواية بالأوضاع السردية والمشاهد الروائية التي تتناقض تماما مع مطلب الاعتداد بالنفس والفخر بإنجازاتها كما دأبت على ذلك معظم النصوص الروائية التي أنجزها كتاب السير الذاتية العربية. بل إن نقد الذات يرتفع أحيانا في "زمن الأخطاء" إلى درجة التجريح والسخرية المرة"[1].

فمن أجل إدراك هذا السر الأبدي/ الحب، استعان "شكري" بكتب تناقش موضوع الحب الحقيقي أو المثالي– المنبوذ من مجتمعه– إذ قرأ لِـ "مصطفى لطفي المنفلوطي" (1876– 1924)، و"جبران خليل جبران" (1883– 1931)، و"ميّ زيادة" (1886– 1941). فوجد ضالته فيها، "لكنه حب مشروط بالموت أو الحزن الأبدي أو هو الجنون"[2]. وقد فسّره "شكري" بواقعته مع "كنزة"، واصِفًا إياها بين لحظتين متناقضتين: "أتأمل غيبوبتها وتنفسها الواهن. إن لها الآن جمال امرأة ميتة مشتهاة في زمن بابلي أو إغريقي. لم يعد فيها ما يغري. فقدت كل كبرياء صحوها، وغَزَلِها، وتباهيها. لقد تحررت من كل خداع، من كل زيف بشري. إنها الآن لنفسها كلية شاءت أم لم تشأ"[3]. ويُبيِّن هذا المقطع أن المرأة تُنزَع عنها صفات العناد الجميل، والإغراء الحسن، والحب العفيف، كلما انخرطت في تلبية رغبات مجتمع ذكوري بامتياز يحط من قيمتها ويجعلها بضاعة ليلية. وهذا ما قتل حبه لها، وأعدمه. "لقد فكّرت أن الفاكهة الإنسانية إما أن تُقطَف في أوانها أو تتعفن، لكنني مخطئ. إن القطاف لم يحن بعد"[4]. ولم يكن الحب دالا على مداليل الحزن والألم والفراق والوجع عند "شكري" وحده، وإنما كان همًّا– أيضا– عند "المختار الحداد" زميله بالمعهد الذي تزوجت محبوبته "البتول"، فقد "كان المختار يُحْيِي تقاليد الحب العذري عن صدق"[5]. كما "خلق بوزيان لنفسه قصة حب مع تلميذة، غدًا دوره في الدعوة. لم يتكلم معها أبدا. حب النظرة من بعيد. مرتان في الأسبوع، يبدأ درسه في العاشرة.

[1]– الغرافي، مصطفى، (2014)، محمد شكري: صورة المرأة وكتابة الاحتجاج في "زمن الأخطاء"، مجلة نزوى، العدد 79، ص 70.

[2]– شكري، محمد، (2020)، زمن الأخطاء، مرجع سابق، ص 41.

[3]– المرجع نفسه، ص 43.

[4]– المرجع السابق، ص 94.

[5]– المرجع السابق، ص 54.

يسافر، في هذين اليومين، إلى تطوان، في السادسة صباحا، ليعود بعد ثلاث ساعات. يتناول فطوره في مقهى أفينيدا دي إسبانيا، الذي تمر أمامه معشوقته بلذة يراها ولا تراه. إذا عاد فاترا وشاردا ندرك أنها لم تمر"[1]. فَعِوَض أن يكون الحب محركًا على العيش بسعادة والإقبال على الحياة، صار باعثا على الشقاء والحزن والموت والجنون، وتلك حالة أستاذ اللغة الفرنسية "قاسم" الذي عانى من حصار نفسي وهمي؛ سببه ماضي أمه الذي يطارده، وتجربة حب مع صديقته اليهودية "نتالي".

إن تجربة "شكري" شبيهة بِتَحَدٍّ يبحث فيه عن قيمة أصيلة داخل مجتمع منحط أخلاقيا؛ فقد بحث عن الحب حيث الدعارة، والحانات، وانتشار المخدرات. وقد أبانت تجاربه السابقة مع "كنزة"، و"ربيعة"، و"سعيدة"، و"عائشة"، و"حليمة" أن الحب عناد قاسي، وجنون، وخيبات متواصلة، بل هو مستحيل، وأن الجنس محرك للسعادة (العابرة)، ونسيان (مؤقّت) للهموم، بما فيها هَمّ الحب وحزنه. "إن الحب لعبة قذرة. لا أريد أن أعيد ما حدث لي مع كنزة"[2]. لم يعاقب أحد "شكري" على أخطائه التي اقترفها بعشق، ومارسها بلذة، لكن مخلفاتها النفسية والاجتماعية ظلّت تسكنه. ونظن أن هذه الرواية ليست تعددا لهذه الأخطاء، لكنها– أولا وقبل كل شيء– اعتراف بها من ناحية أولى، ومراجعة للذات وتقييم لها من ناحية ثانية، وهو ما يجعل سيرته الذاتية نسقا اجتماعيا احتجاجيا بالدرجة الأولى، أي سيمياء يعكس المجتمع في أدق تناقضاته ومشاكله وأمراضه. فصحيح أنها تصوير للمجتمع في الدرجة صفر بدون أي حجاب أو غلاف، لكنها احتجاج في قالب سردي. لذلك، ما يجب أن نعيه أن غاية المؤلف لم تكن تتجلى في تدوين أحداث حياته اليومية من الطفولة إلى الكبر، بل تضمينها ذاكرة فردية وجماعية تنتقد الذات والآخر والمجتمع؛ لأنه اختار نمط "الكتابة المضادة" التي تعترف بالأخطاء ولا تجعل البطولات حُجُبًا للطابوهات (الممنوعات الثقافية). "سأكتب عن مزعجات المدينة. سأكون ضدها (...). أكتب ما أمزقه في يأس. يعجزني جمال التعبير. كيف تأتي الكتابة؟ إنني قزم نفسي"[3]. إن "شكري" يعترف أن الكتابة عن ظواهر مجتمعه المهمّش ليس بالأمر الهيّن، فهو مربِك؛ لأنه مطالَب بأن يكتب لينسى، وفي الآن ذاته مُجبَر على تذكر تجاربه الجميلة البائسة في أثناء الكتابة. وهذا النمط من الكتابة– حسبه– لا يتقبّل تحسينات لفظية، أو زخرفة لغوية؛ لأن بُعده الفني يتطلب أن يُصوِّر مشاكل المجتمع، وأن تكون الرواية سيمياءً اجتماعيا يُضمِر أنساقا. هكذا هي الكتابة عنده، شفافة وجافة في بعدها التقريري، لكنها مسكن للأنساق المضمرة والحِكم والتأملات على مستوى الإيحاء.

[1]– المرجع السابق، ص 143.
[2]– المرجع السابق، ص 115.
[3]– المرجع السابق، ص 127.

لقد شكّلت "زمن الأخطاء" سجلًّا للأخطاء التي أحبها "شكري" يوما، فاختار أن يُقَيِّدها كتابةً، ويترك للقارئ مهمة تلقّيها وإعادة بنائها وتأويلها. فهو لم يشأ أن يحرقها ليتخلص منها كما فعل صديقه "لوشوفاليي" حين أشعل النار في حقيبة ذكرياته. "لأول مرة أرى فيها مثل هذه العدسية. كل قصصه التي كان قد قرأها عليّ أسلوبها ينعدم فيه الخيال الأدبي. إنها مجرد سرد أحداث مأساوية دون جمالية. كل شيء مطبوخ مسبقا وجاهز. لا شك أنه لا ينمي موهبته الأدبية بمشاعر العزلة والقراءات التأملية"[1]. ذلك أن ذكرياته الخائنة والمشكوك فيها هي ما ولّد لديه حزنا عميقا ووجعا كبيرا، فهذا طبيب الأوجاع والأحزان–"لوشوفاليي"– لم يحسن التصرف هذه المرة، فلم يقدر على علاج نفسه. واعتمادا على هذه الواقعة، تنبه "شكري" إلى أنه لا وصفة لِهَمّ الحب عدا الكتابة عنه؛ لأن الحب أسطورة سمع وقرأ عنها دون أن يعيشها داخل مجتمعه. و"أكيد أنني لن أحرق حقيبة ذكرياتي على الشاطئ. إنني لم أسمح، حتى الآن، لأية عاطفة أن تخونني. لقد عشت دائما حالة طوارئ. ما أحببت إلا ما كان هاربا. إن الحب، مثلا، لا يسحرني إلا إذا كان أسطوريا: أتحدث عنه دون أن ألمسه أو أعانقه"[2].

4.2. المرأة

يلحظ قارئ وفاحص رواية "زمن الأخطاء" هيمنة تيمة المرأة، وحضورها المتواتر من البداية إلى النهاية؛ لكونها قوة فاعلة رئيسة في توجيه مسيرة الأحداث من جهة، ورمزا دالا على التضحية والكفاح من جهة أخرى. لقد جسدت المرأة في هذا البناء الروائي ماثولا لطابوهات وممنوعات ثقافية داخل مجتمع ما بعد الاستقلال بالمغرب؛ فقد مثلت "ميمونة" والدة "شكري" أنموذجا للمرأة التي تشتغل وتضحي من أجل ضمان قوت أبنائها، وبالمقابل توجد نماذج من النساء اللاتي دفعهن الفقر والبؤس والتهميش إلى امتهان الدعارة وحياة الليل. إن "شكري" أراد من هذه الرواية أن تكون اعترافا بأخطاء جماعية أعمق من كونها أخطاء فردية؛ فهي أخطاء مجتمع ينبغي أن نرفضها وننبذها عبر آلية الكتابة، "أنا لا أعرف كيف أكتب وفي ذهني مكنسة من بلور. المكنسة احتجاج وليس زينة"[3].

لقد عبّرت الرواية عن نظرة مجتمع متجذِّر في الذكورية تجاه المرأة/ الأم التي لا تنسَ وظيفتها الاجتماعية أبدا على الرغم من وضعها الاجتماعي الدوني. وقد عرضت لنماذج نسائية مختلفة تُجسِّد مفارقات صارخة قلّما يُتحَدَّث عنها، أو يُتطرَّق إليها في السير الذاتية للكتاب، نذكر على سبيل التمثيل ما يلي: "ربيعة" ضحية أب مخمور، "عاد أبوها سكرانا ونام معها عن غير قصد. حكم عليها أن تهجر مكناس أو يقتلها"[4]. و"سعيدة" التي مات أبوها وتبنّتها عمتها، وهي "فتاة لم تُخلَق أبدا

[1]– المرجع السابق، ص 155.
[2]– المرجع السابق، ص 158.
[3]– المرجع السابق، ص 100.
[4]– المرجع السابق، ص 44.

للدعارة"[1]، وإنما هي ضحية مجتمع منحلّ. ثم "فطيمة" التي لم يُنْسِيها امتهانها للدعارة دور الأم المثالية التي تخاف على ابنتها؛ فقد أظهرت حزنًا عميقا بعد مرض ابنتها "سلوى"، وغاب عنها مرحها وجمالها ونشوتها ورقّتها المعهودة يوميا؛ لأن "مرض سلوى أقوى من كل لذاذتها"[2]. فهؤلاء النساء لم تسقط عنهن غريزة الأم وحنانها ولطفها، رغم أخطائهن التي مارسنها بدوافع اجتماعية متباينة. فَهُنّ يعشن حياتهن نهارا بشكل طبيعي حيث لا إيحاء، ولا إغراء، ولا رغبة. ومع ذلك، فإن النظرة الدونية تطاردهن حيثما حَلَلْنَ؛ إنّهُن من وجهة نظر المجتمع لا يصلحن للزواج، وحتى الرجال الذين يشاركونهن الأخطاء ذاتها يبحثون لاحقا عن عفيفات، "إنه يحلم أن يتزوج امرأة لم تفسق حتى لا يكون أولاده معقدين، وحتى لا تخونه"[3].

توصل "شكري" إلى أن المرأة في مجتمع ما بعد الاستقلال ضحية أخطاء مجتمع، فهي إما أن تجد نفسها ربة بيت تربي أبناءها، وتنظف بيتها، وتطبخ الطعام، وهذا هو النموذج المقبول. وإما أن تكون متعة ولذة ووسيلة لنسيان هموم الرجل ليلا في المواخير والملاهي والحانات، وهذا النموذج مرفوض لماضيها السيء، فهذه المفارقة دفعته إلى تعرية الواقع الاجتماعي، والتنقيب عن اختلالاته لِيُدوّنها في مذكراته اليومية، "لا أتعلق بالأحلام إلا عندما يهزمني طموحي، ولا أتذكر همومي إلا عندما أجلس لأكتب"[4]. إن يومياته كتابة من نوع خاص تتعدى تقييد الأحداث إلى التأمل في الحياة والاحتجاج والحكمة؛ كتابة ترفض واقعا اجتماعيا عاشه ببؤس وتهميش، وتحتج على وضع اجتماعي منحط ومفكك أخلاقيا ومريض نفسيا لا تتمتع فيه المرأة بأية قيمة اعتبارية أو مكانة مميزة حيث لا طموح لها ولا آفاق سوى أنها ذلك المؤنس الليلي الدافئ الذي ينسي هموم الحب والفقر، "دعتني حبيبة للعشاء معها فتلاشى تعبي"[5].

لقد فهمَ "شكري" من تجاربه العديدة ومواقفه المختلفة التي عاشها أن الحب عاطفة مستحيلة داخل مجتمعه، لأنه "عشق لما لا يمكن أن يكون"، على حد تعبيره. وقد قاده هذا الأمر إلى صَوْغِ تصور للحب "الذي يمكن أن يكون": "إن المرأة التي أعيش معها دائما إذا لم تجعلني أعزف عن كل النساء فليست هي المرأة التي ينبغي لي أن أعيش معها. ينبغي لها أن تكون هي كل النساء، وكل النساء لسن هي. ينبغي لي أن أميّزها في الظلام حتى وإن تكن بين جمهرة من النساء. إذا انطفأت الشموع يضيء كلانا الآخر. إذا حجبونا بستار سميك أراها وتراني. المرأة النور الخارق، المرأة الشفافة،

[1]– المرجع السابق، ص 46.
[2]– المرجع السابق، ص 60.
[3]– المرجع السابق، ص 69.
[4]– المرجع السابق، ص 153.
[5]– المرجع السابق، ص 90.

لم أجدها بعد"[1]. وبالنظر إلى استحالة هذه العاطفة النبيلة، ظل عاشقا "لما هو كائن" (الدعارة، والجنس) الذي أنقده- حسبه- من "السقوط في فخ الحب الخائب. باكرا اكتشفت أنني أحب مزاج العاهرة، لكنني لا أستطيع العيش معها. إنها تعتقد أن الرجل هو الذي عهّرها فتقضي كل حياتها لتُعهِّره مثلها"[2]، فهي "قُطْرٌ مسموم لمن يعشقها. تعشق كل الرجال ولا تريد أحدهم (...). لقد خانني كل من وعدني. يئستُ من الحب والزواج فتعلَّمتُ كيف تجعل الرجال يتشاجرون من أجلها"[3]. فمن لم يحبها في طُهرها محكوم عليه أن يحبها في عَهرها، وسيكون الحب المفقودُ موجودًا، لكن تحت مظلة الدعارة. "إن العشق في طنجة ليس من أحلام العذارى"[4].

5.2. رابطة الأمومة

تُمثِّل "ميمونة" أمّ شكري أنموذجا للأم الريفية المغربية التي تناضل وتواجه ظروف الحياة ليحيا أبناؤها، وهو همُّ جميع الأمهات الفقيرات، فهُنَّ يمتلكن الحوافز ذاتها، ويشتركن الطموح نفسه. وهذه التضحية تُقوِّي من ارتباط الأولاد بوالدتهم، والعكس. لقد صوّر "شكري" أمه بصفتها الأم المثالية داخل مجتمع منحطّ، فهي ذلك الحب العظيم الذي لم يجد امرأة مثالية مثلها تُمثِّله، وتستحقه. ذلك أن الأم علامة على الحنان، والدفء، والألفة، والأُنس، والمرح، والبسمة، والصبر، والكفاح. "لم أرها منذ أكثر من سنة. شغّلت المسجلة ورجوتها أن تغني لي بالريفية. انحرجت قليلا باسِمةً ثم غنت. الكلمات من خلق مرح الطفولة والحطب والحصاد، لكن صوتها حزين، لقد أضعفتها شيخوختها المهمومة. الاغتراب بزّدَ حنيني إليها. لا شكّ أنها فكرت، كعادتها، في بعدي عنها. إني شاطر الأسرة الوحيد. إنها ميتة- حية: أيقظني حنيني إليها ذات صباح صيفي. خواء في الروح. انحطاط صحي"[5].

كما قدّم الصَّوْغ الروائي تصويرا اجتماعيا قويا وعميقا لتعلّق "شكري" بوالدته التي تُجابِه الشدائد للمحافظة على تعاضد أفراد أسرتها بما هي نسق اجتماعي حميمي وعاطفي؛ فقد قدّمتها الرواية بصفتها علامة على الوحدة والتماسك والانسجام على المستوى الاجتماعي، فهي ذلك الخيط الرفيع الناظم الذي يقرّب وجهات النظر بين أفراد أسرتها في أكبر محنها ومشاكلها. كما جسدها البناء الروائي بوصفها علامة على التضحية بصفتها ذلك المناضل الذي يشارك في تدبير الأسرة وتنويع مصادر عيشها على المستوى الاقتصادي. إنها كل شيء، وبغيابها يندثر كل شيء، وينهار الكل. إن الأم نبع الحنان، ومصدر الحب الدائم الذي لا يُخيِّبك أبدا.

[1]- المرجع السابق، ص 123.
[2]- المرجع السابق، ص 124.
[3]- المرجع السابق، ص 188.
[4]- المرجع السابق، ص 190.
[5]- المرجع السابق، ص 181- 182.

يُنبّهنا "شكري" إلى أن تضحيات الأم لا تُردّ، وحُبها لا يُعوَّض، وأُنْسها لا يُمَلّ، وأُلفتها لا تنتهي، وصورتها لا تنمحي من الذاكرة. وقد فسّر هذا الأمر بمرض أمه الذي لم يُصِبها لوحدها، لكن أصاب الأسرة بكاملها؛ فأعراضه جسدية ومعنوية، "أصيبت أختي ارحيمو بدرن رئوي. أبي وأخي عبد العزيز أيضا يسعلان بحدة. وباء شامل في أسرتنا. لم تسلم منه سوى مليكة وأنا. أمي شفيت لكنها خاضعة للرقابة الطبيبة الدورية. أبي وحده ظل يُعالَج حُرًّا"[1]. وقد شكلت وفاة أمه– الذي أُعلِمَ به في حينه– تحديًّا آخر ينضاف إلى حياته اليومية، فقد أثّر في نفسيته، وقلمه أيضا، "ماذا عسى يقوله الابن عن موت أمه؟"[2]. فأن تموت الأم معناه أن يُقطَع الحبل السُّرّي حقيقةً، بعدما قُطِعَ وَهْمًا بعد الولادة، إذ نتوهم أنه بقطعه ننفصل عن أمّنا مصدر طاقتنا وحياتنا طوال فترة الحمل، لكن الحقيقة أثبتت العكس: نزداد تعلّقا وتمسكا بها، ونعيش مربوطين ومشدودين إليها بحبل سِريّ عبارة عن رباط خفي يفسره الحب والمحبة والاحترام المتبادل، لذلك لا نراه لكننا نحس به، وينعكس على مستويات العلاقات والسلوكات والقيم والمواقف. إن قدَر "شكري" أن يكتب عن أحزان مختلفة: الحب، ومرض الأم وموتها، ومرض إخوته، وفقره، إلخ، وكأن هذه الرواية مذكرات يومية عن حزن متعدد الأوجه. لكن وفاة أمه موت مضاعَف، وحزن أبدي صاحَبَه انهيار نفسي وجسدي أفجع من موت أبيه الذي أُخبِرَ به بعد شهور طويلة على ذلك، "لكأنّي ولِدت بين زهرتين لا أحب إحداهما"[3]. وإذا كانت ذاكرة "شكري" مُتعلِّقة بأمه، فإنها تحتفظ بصورة الأب الذي لا يحب أبناءه؛ إذ لم يكن البيت الريفي سوى مكانا للصراعات اليومية بين الأب وأولاده، والكره، والسخرية، والجوع، والمرض، والحظ السيء. "بيت البؤس الجميل والخلافات اليومية مع أبويّ"[4].

6.2. ذاكرة الأمكنة

ليست سيرة "محمد شكري" تدوينا لأخطاء كما يشير إلى ذلك ظاهرها التقريري، وإنما هي رسائل حكيمة ناتجة عن تأملات عميقة وقراءات فاحصة لحياة الفرد والجماعة في السياق الاجتماعي والتاريخي الذي كُتبت فيه؛ إذ يستعين بالسيرة الذاتية من أجل أن ينجز غرضه الرئيس، الذي يتمثل في توظيف مكونات فنية روائية بصفتها علامات بمقدورها الإيحاء إلى موضوعات ديناميكية في السياق. فقد وظف الشخوص، والتيمات (الموضوعات)، والقيم بغرض تصريف رؤية مخصوصة حول المجتمع والأفراد والعلاقات الاجتماعية، وهي وظيفة إضافية لم ينفك منها عنصر المكان بدوره.

[1]– المرجع السابق، ص 99.
[2]– المرجع السابق، ص 178.
[3]– المرجع السابق، ص 128.
[4]– المرجع السابق، ص 86.

تتجلى سميائية المكان في اشتغاله بصفته ذاكرة للأحداث التي عايشها "شكري"، وقد شكلت مدن طنجة، وتطوان، والعرائش، والريف إحالات على الماضي وتذكرا ممزوجا بالفرح والحزن. إذ عاش "شكري" طفولة مرحة بئيسة في حي "الترانكات" بالريف، "أستعيد الحنين إلى ملاعب طفولتي في متاهات الدروب، والأحياء والضواحي"[1]. ولم يكن غرضه استرجاع الماضي، بل تحفيز القارئ على أن الواقع الاجتماعي- مهْما يكن- ليس عائقا لتحقيق الطموحات؛ فهو يقدم نفسه بصفته أنموذجا عانى من الفقر والتهميش، لكن رغبته في الوصول كانت أقوى من خوفه من الفشل. ثم إن الصراعات اليومية بين الأبوين لا يمكنها أن تحد المرء من عيش تجارب الحياة رغم مرارتها وقسوتها، والاندفاع بقوة نحو تحطيم جدار المستحيل؛ إذ لم يكن بيت "شكري" بالريف مكانا للألفة والحب والسعادة والانسجام، بل صوّره بِعَدِّه مكانا للبؤس والفقر والحلم الجميل، و"كوخ اللعنات والنحس اليومي"[2].

ومع ذلك، فإن الكوخ الريفي جسّد- عنده- "مستعادا جميلا" يستخلص منه تجارب وخبرات تعينه في حاضره وتستشرف مستقبله. فهو المنبت والأصل، فدائما ما يشدّنا المكان إليه بخيط وطيْف يزورنا على شكل ذكرى، ذلك أن المرء يألف المكان كما الشخوص بل أشد؛ لأنه لا يَخُون عكس الأفراد. وهو ما حدث مع "شكري" بالضبط، فهو لم يتخلص من ذكرياته بمدينة العرائش حيث انتقل للدراسة، "أحكي لها عن دراستي في العرائش، أو حياتي في طنجة"[3]. وللعرائش موقع مميز في ذاكرته ووجدانه؛ فهي المكان حيث تعلم القراءة والكتابة بالمعهد الديني، المدينة حيث حدثَ الخلاص من الجهل، والتهميش، والمجاعة. إنها المدينة التي سيتقن فيها مهارتي القراءة والكتابة، وسيتعلم نقد الواقع وفحصه. أما مدينة طنجة، فلا شيء يعوِّضها البتة؛ لأنها لعينته التي تغلغلت في أعماقه وسكنت روحه مثلما سكنها وعاش بها، فأغلب مذكراته عنها. "طنجة الحلم، طنجة العارية، الرّنانة، الشفافة من كأس من البلور، طنجة الأسطورة، والجبل لكل صوت"[4]. إن ليل طنجة ليل الرغبات، و"العسل البشري".

7.2. المستشفى المعكوس

لم تُفْضِ مغامرة "شكري" المعرفية الفاحصة لمشاكل مجتمعه إلى رصدها وانتقادها فحسب، لكن هذه التأملات والقراءات أثرت سلبا في جسده ونفسيته. "لكن انحلال الروح، في الجسد، كان

[1]- المرجع السابق، ص 84.
[2]- المرجع السابق، ص 88.
[3]- المرجع السابق، ص 92.
[4]- المرجع السابق، ص 187.

مَسِّي المرضي، الغلاب (...). ذات ليلة أعلنت إفلاسي، الجسدي والمعنوي"[1]. فقد انطلقت مسيرته حبلى بالشجاعة والتحفيز على الفعل أفقًا لإتقان القراءة وإجادة الكتابة بصفتهما وسلتين للتأمل في الإنسان والمجتمع، فكلما كبُر "شكري" كبرت أحلامه وطموحاته؛ لأن "سر العمر في سر النمو"[2]، المعرفي والثقافي والنقدي.

أُحبِط "شكري" اجتماعيا، ثم نفسيا؛ والسبب أن مجتمع مُثقَل بالأعطاب. فدخلَ المصحة بحثا عن إنقاذ وخلاص من الواقع الخارجي المضطرب والفوضوي، "عزلة اشتقت إليها. بعيدا عمن أعرفهم ولا أعرفهم. أفِّ للقرف البشري"[3]. ورغم الأمراض النفسية التي يعاني منها المرضى، فإنهم حكماء؛ لأنهم يتحدثون عن العدل، والحرية، والصفاء، والتعاون، والصحة، وهي موضوعات غائبة عن الحديث اليومي خارج المصحة. وقد صوّر هذه الأخيرة بأنها فضاء حيث الراحة، والهدوء، والتأمل، والإلهام، والكتابة. "أسجل هذه المذكرات في أي وقت"[4]. إنها حدّ مكاني يعزله عن أمراض المجتمع ولا يغادرها إلا للضرورة، "عندي امتياز للخروج من المستشفى. لا أخرج إلا لشراء حاجياتي. إن الوجوه في الخارج تبدو لي بليدة، مزعجة، أما هنا فهي وجوه أذكاها الشقاء، والقلق الدائم. خبز المستشفى له طعمه الخاص. إن المجانين يفتحون لي أبواب الإلهام لأطل على العالم. كلما نظرت إلى مجنون رأيت فيه شعلة الذكاء خابية عمرها عمر البشرية نفسها. هنا يتجلى منتهى شقاء الإنسان"[5]. لقد صار المستشفى مكانا للتعايش والألفة فيما بين "المنسيِّين"– على حد تعبير "محمد شكري"– الذين جمَعَتْهم أحلام الفقراء، وهمومهم، وخيباتهم. إذ تحولت المصحة عند "شكري" و"المزميري" وغيرهما إلى مأوى يحميهم من نفاق المجتمع ومشاكله. "المزميري يعتبر المستشفى مسكنه الحقيقي. لا يزوره أحد. له من الرفقاء هنا أكثر مما له في الخارج. هناك مريض حمال، في محطة القطار، لا يدخل المستشفى إلا في الشتاء، لأنه يكون في شبه عطالة. هو أيضا لا أحد يزوره"[6]. لكن سرعان ما سيكتشف "شكري" أن المستشفى "مصحة معكوسة"؛ فهي امتداد للمجتمع المريض الذي هرب منه.

8.2. شعرية الرواية

تتأسس شعرية الرواية على مجموعة من الخصائص والمكونات الفنية التي تبني الصوْغ الروائي، وتجعله عملا أدبيا دالا على معنى تام ومؤديا لرسالة مكتملة. وسيرة "زمن الأخطاء" إنتاج سردي يؤسس لاتجاه سير ذاتي غير معهود؛ إذ توثّق أخطاء الفرد والمجتمع، وتصرِّف رسائل ضمنية

[1]– المرجع السابق، ص 129.
[2]– المرجع السابق، ص 132.
[3]– المرجع السابق، ص 171.
[4]– المرجع السابق، ص 172.
[5]– المرجع السابق، ص 172.
[6]– المرجع السابق، ص 135.

لا يمكن فصلها عن هموم الذات والجماعة. ومن أجل ذلك، استعمل الروائي عدة مقومات أسلوبية وتقنيات سردية متعاضدة من بناء كل روائي دلالي، وهي كالتالي:

- **أولاً: التصوير**: الرواية تمثيل سردي للمجتمع، وتصوير دقيق وفاحص لمشاكله. وهي تقنية وُظِّفت من البداية إلى النهاية ليقدم السارد تصويرا جريئا للمرأة، والحب، والأسر الفقيرة، وحياة الفقراء البائسة والجميلة في آنٍ بكل أفراحها القليلة وهمومها التي لا تنتهي. كما صوّرت الرواية قيم المواطنة، والتضامن، والتلاحم الاجتماعي التي ميّز المغاربة– أطفالا، ورجالا، ونساءً، وشبابا، وشيوخا– في مواجهتهم خائني الوطن وعبيد المستعمِر وعملائه، وطردهم من مغرب الاستقلال. لقد جسدت هذه التقنية أداة للسارد ليولد خطابا روائيا احتجاجيا.
- **ثانياً: الوصف**: تقنية الوصف تعطيل لسرد الأحداث، لكنها بالمقابل تزيد القارئ معرفة بخصائص الأمكنة والشخوص. وقد استثمر السارد الوصف بنوعيه: وصف خارجي للمدن والأماكن والشخصيات والأحداث، ووصف داخلي يستهدف نفسية الشخصيات وانفعالاتها.
- **ثالثاً: الحوار**: اعتمد الروائي "محمد شكري" في روايته على عنصر الحوار الخارجي بهدف كشف العلاقات داخل المجتمع، سواء تعلق الأمر برصد علاقة شخصية "شكري" بأصدقائه، أو أمه، أو أبيه، أو طنجة، أو الريف، إلخ. بينما استعمل الحوار الداخلي لكشف باطن الشخصيات، وذلك كأنْ يذكر "مولونوج" "شكري" الذي يتأمل ذاته ومجتمعه، ويقرؤهما، وينقدهما، ويُقيّمهما، ويعترف بأخطائهما التي أحبها يومًا.
- **رابعاً: التذكر**: تقنية التذكر مفارقة زمنية تعطِّل السرد ليتمكن السارد من استرجاع الذكريات واستحضارها من الماضي لتصير شريكة في الحوار مع الحاضر والمستقبل. وهي وسيلة لتذكر طفولة "شكري"، وكوخه المستعاد الجميل، ومدينة طنجة التي أسِرته، ومدينة العرائش التي غيّرت حياته. "مشيت في طريق النخيل مستعيدا ذكرياتي بمزيج من الفرح والحزن عن هذا الحي"[1].
- **خامساً: الحِكَم**: سيرة "شكري" ليست إحصاءً لأخطاء فرد ومجتمع، لكنها عبارة عن تأملات، وفحص، وقراءة ناقدة في واقع اجتماعي عنيف. لذلك، فإنه لم يكتب ليصير كاتبا– على الرغم من أن الكتابة امتياز اجتماعي حسبه– لكن لتكون سيرته تضمينا لمجموعة من الرسائل المضمرة التي يتوجب على القارئ استخلاصها:
  - الجهل مشقّة، والتعلم انعتاق من التهميش والفقر، مهْما تأخر الوقت؛
  - التدريس أمانة صعبة، قبل أن تكون مهنة؛
  - الحياة تجربة تستحق أن تُعاش بحكمة وتعقّل حفاظا على صحتنا النفسية؛

[1]– المرجع السابق، ص 86.

- السعادة طائر هارب يتطلب استغلال فرص الفرح والمسرور، "لا ينبغي لنا أن نثق كثيرا في السعادة، إنها آتية هاربة، منفلتة كلما أردنا القبض عليها. قد تكون مثل عصفور جميل يحط على حافة شرفتنا. لا نكاد نقترب منه حتى يطير"[1]؛
- الحياة جميلة إنْ أقبلنا عليها بحب وطموح كبيرين. فمن أجل أن "نقهر فكرة الموت لا ينبغي لنا أن نتصور أنفسنا ميّتين. إنه مصيرك مع نفسك. لا يخص أحدا ولا تنتظر من يؤاسيك. اعتبر نفسك خالدًا ولو في الوهم. لا يقهر الموت إلا الحياة"[2]. إن الزمن لا ينتظر أحدا؛ لأنه "عندما نشيخ نتمنى أن يبدأ كل شيء من جديد!"[3]؛
- الإنسان خاضع للتطور والتغير، بيولوجيا ومعرفيا. "إن سر العمر في سر النمو"[4]. فقد تعلم "شكري" كل شيء بالرغبة والإصرار والصبر؛ "الإنسان هو كيف ينتهي وليس كيف يبدأ"[5]؛
- تأملات "شكري" بحث عن الرمزي في الحياة، أي عن "لعبة الحياة ورمزها لا عن حقيقتها: عن الغامض واللغز، لا الواضح والبسيط، عن المجهول لا المعلوم، عن السراب لا الماء"[6].

- **سادساً: لغة الرواية:** لغة الرواية عنيفة وقوية وجرّيئة تُعرِّي كل مسكوت عنه في مجتمع "شكري"؛ فهي لغة وسطى خالية من أي زخرفة أو تزيين، لكنها ليست بريئة. فهي لغة يفهمها الأكاديمي والقارئ الاعتيادي؛ لأنها لغة غير مُتكلِّفة تُدمِج أحيانا مفردات من الدارجة المغربية، وتعبر عن أوضاع الفقراء وهمومهم في كل البقاع، وكأنها صوت يتحدث باسم الفقر، ويرفضه، ويحتج عليه.

الخاتمة:

تمكنت هذه الدراسة إلى تحليل أنموذج من الخطابات الروائية المغربية في ضوء مقاربة سيميائية اجتماعية، ويتعلق الأمر بتأويل الأبعاد الاجتماعية للمعنى في السيرة الذاتية لـ "محمد شكري" الموسومة بـ: "زمن الأخطاء". وقد أظهر التحليل السيميائي أن الرواية فضاء علامي يتكون من مجموعة من العناصر التي بمقدورها الاشتغال بصفتها أنساقا سيميائية تُعبِّر بكيفية غير مباشرة عن رسائل ومعلومات لا تُفهَم إلا إذا أخذنا بعين المراعاة السياق الاجتماعي الذي دُوِّنت فيه هذه المذكرات. وقد تبيّن أن غرض "شكري" لم يكن تدوين أحداث حياته اليومية في سيرة ذاتية، لكن همّه التعبير عن رفضه لمجموعة من الممارسات الاجتماعية التي طبعت المجتمع المغربي خلال فترة ما بعد الاستقلال، وهي رسائل عميقة عبارة عن تأملات وقراءات مُتمرِّدة شملت مختلف الجوانب النفسية

[1]– المرجع السابق، ص 101– 102.
[2]– المرجع السابق، ص 140.
[3]– المرجع السابق، ص 156.
[4]– المرجع السابق، ص 132.
[5]– المرجع السابق، ص 158.
[6]– المرجع السابق، ص 158.

والاجتماعية التي شهدها مجتمع الفقراء؛ ذلك أن هذه السيرة الذاتية تقول أشياء، وتُخبِر عن موضوعات من خلال سياق اللغة.

قائمة المصادر والمراجع:

- شكري محمد، (2020)، زمن الأخطاء، ط 2، الدار البيضاء، دار الفنك للنشر. (In Arabic)
- الغرافي، مصطفى، (2014)، محمد شكري: صورة المرأة وكتابة الاحتجاج في "زمن الأخطاء"، مجلة نزوى، العدد 79، ص 69- 78.
- مرشيد، فاتحة، (2019)، انعتاق الرغبة (رواية)، ط 1، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
- Halliday, Michael. (1978). Language as Social Semiotic: The Social Interpretation of Language and Meaning. Edward Arnold Publishers. London. First Published.
- Hodge, Robert and Kress, Gunther. (1988). Social Semiotics. Cornell University Press. Ithaca. New York. First Published.
- Janssen, Amanda. (2017). Social Semiotic Multimodal Analysis of Discourse in Banking, In: Text- Based Research and Teaching. ed. P. Mickan and E. Lopez. Palgrave Macmillan. Accessed 20/11/2020. Doi: 10.1057/978-1-137-59849-3_5.
- Leeuwen, Theo Van. (2005). Introducing Social Semiotics. Routledge. London and New York. First Published.
- Liu, Ming. (2014). The Social Interpretation of Language and Meaning. Theory and Practice in Language Studies. Vol. 4. No. 6. June. ACADEMY PUBLISHER Manufactured in Finland. doi:10.4304/tpls.4.6.1238-1242.
- Mehawesh, Mohammad Issa. (2014). The Socio-Semiotic Theory of Language and translation: an overview. International Journal of Humanities and Social Science. Vol. 4. N: 8. June. Accessed 20/12/2022. Online: www.ijhssnet.com.
- Shukri Muhammad, (2020), The Time of Errors, 2nd Edition, Casablanca, Morocco, Dar Al Fanak Publishing. (In Arabic)

- Al-Gharafi, Mustafa, (2014), Muhammad Shukri: The Image of Women and Protest Writing in the "Time of Mistakes", Nizwa Magazine, Issue 79, pp. 69-78. (In Arabic)
- Morchid, Fatiha, (2019), Emancipation of Desire (novel), 1st Edition, Casablanca, Morocco, Arab Cultural Center. (In Arabic)